بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (صِنَاعَةُ الْأَمَلِ) ٤ رَجَبٍ ١٤٤٦هـ

عِبَادَ اللهِ: إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعِبَادِهِ الْمُقْبِلِينَ عَلَىٰ كَلَامِهِ خَيْرًا فَتَحَ لَهُمْ مِنْ فَهْمِهِ وَإِدْرَاكِ حَقَائِقِهِ مَا تَسْمُو بِهِ هِمَمُهُمْ، وَتَزْكُو بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَتَطِيبُ بِهِ حَيَاتُهُمْ، وَتَحْسُنُ أَحْوَالُهُمْ، وَيَكُونُ لَهُمْ بَلَاغًا إِلَىٰ حِينٍ.

وَمِنَ الْمَعَانِي الَّتِي بَثَّهَا رَبُّكُمْ فِي كِتَابِهِ، وَأَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ تَعْقِلُوهَا لِيَحْسُنَ حَالُكُمْ، وَيَطِيبَ مَآلُكُمْ: حُسْنُ الظَّنِّ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ مَلَاكُ الْخَيْرِ الَّذِي أُرِيدَ لَكُمْ، وَهُوَ أَنْبَلُ مَرَاتِبِ مُعَامَلَتِكُمْ لِرَبِّكُمْ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ. وَمِنْ تَمَامِ التَّعَبُّدِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ: الْفَأْلُ الْجَمِيلُ بِأَنَّهُ مُزِيلٌ عَنْكُمْ هَذِهِ الْحُرُوبَ وَالْفِتَنَ وَرَافِعُهَا، وَكَاشِفٌ هَذِهِ النَّازِلَةَ وَدَافِعُهَا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤَمَّلُ لِكُلِّ خَيْرٍ، الْمَرْجُو عِنْدَ كُلِّ شَرٍّ، وَهُوَ الْمَنَّانُ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَجْهُهُ أَكْرَمُ الْوُجُوهِ، وَجَاهُهُ أَعْظَمُ الْجَاهِ.

إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ شَجَرَةٌ تُنْبِتُ أَشْرَفَ الْأَحْوَالِ، وَتُثْمِرُ أَيْنَعَ الْمَعَارِفِ، فَأَلًا وَرَجَاءً وَانْشِرَاحَ صَدْرٍ، وَاطْمِئْنَانَ قَلْبٍ، وَسُرُورَ خَاطِرٍ، وَسَعَةَ حَالٍ، وَانْبِسَاطَ آمَالٍ. فَأَحْسِنُوا الظَّنَّ بِهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ سَيَتَقَبَّلُ عَنْكُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلْتُمْ، وَسَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ، يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، وَيَشْكُرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ لِحُسْنِ الظَّنِّ بِالرَّبِّ - جَلَّ جَلَالُهُ - بَوَاعِثَ تَبْعَثُ وَتُعِينُ عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

الْأَوَّلُ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ ﷻ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَحَبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ رَجَاهُ وَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِ، وَوَثِقَ بِهِ، وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ.

الثَّانِي: تَدَبُّرُ شَرِيعَتِهِ الْقَوِيمَةِ، وَالنَّظَرُ إِلَىٰ مَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ؛ فَإِنَّهَا شَرِيعَةٌ رُفِعَ بِهَا الْحَرَجُ، وَوُسِمَتْ فِيهَا سُبُلُ الْخَيْرَاتِ. وَقَدْ أَوْدَعَ اللهُ فِي مَثَانِي هَذَا الْكِتَابِ: (بَصَائِرَ) تُنْجِي مِنَ الْعَمَىٰ،

وَ(بَيِّنَاتٍ) تُوصِلُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وَحِكَمًا مُصَرَّفَةً، وَأَمْثَالًا مَضْرُوبَةً، تَسْتَحِثُّ الْعُقُولَ، وَتُنَوِّرُ الْبَصَائِرَ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ شَرَّ مَا مُنِيَتْ بِهِ النُّفُوسُ، وَاضْطَرَبَتْ بِهِ الْقُلُوبُ: يَأْسٌ يُمِيتُ الشُّعُورَ، وَقُنُوطٌ تُظْلِمُ بِهِ الدُّنْيَا، وَتَتَحَطَّمُ بِهِ الْآمَالُ، وَتَخْبُو بِهِ الْأَمَانِيُّ، وَتُسَدُّ بِهِ الْمَسَالِكُ، وَتُغْلَقُ بِهِ الْمَنَافِذُ.

إِنَّ الْيَأْسَ وَالْقُنُوطَ جَاءَا فِي آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ، فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ لَهُمَا، وَالتَّنْفِيرِ مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِهِمَا؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، وَرَوْحُ اللهِ هُوَ رَحْمَتُهُ، وَرَجَاءُ الْفَرَجِ عِنْدَهُ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَىٰ الدَّوَامِ خَائِفًا رَاجِيًا، يَخَافُ جَرِيرَةَ ذَنْبِهِ، وَتَبِعَةَ مَعْصِيَتِهِ، وَيَرْجُو مَعَ ذَلِكَ رَحْمَةَ رَبِّهِ وَعَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، مَقْرُونًا بِالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ أَطْمَعَ اللهُ ﷻ عِبَادَهُ فِي رَحْمَتِهِ، وَرَغَّبَهُمْ فِي عَفْوِهِ، وَعَلَّقَ آمَالَهُمْ فِي مَغْفِرَتِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ: لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي». وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَابْنِ حِبَّانَ وَالْحَاكِمِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ: «فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ».

إِنَّ كُلَّ هَذِهِ النُّصُوصِ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ نُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ لَمِمَّا يَفْتَحُ أَمَامَ الْمَرْءِ أَبْوَابَ الْأَمَلِ وَالرَّجَاءِ، وَيَصْرِفُهُ عَنِ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ، وَيُوَجِّهُهُ خَيْرَ وُجْهَةٍ، وَيَسْلُكُ بِهِ أَحْسَنَ الْمَسَالِكِ، وَيَجْعَلُهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ مَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَيَّامِهِ نَظْرَةَ الْمُتَفَائِلِ، الَّذِي يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ، وَيَرْجُو رَحْمَتَهُ وَجَمِيلَ الْعَاقِبَةِ عِنْدَهُ.

عِبَادَ اللهِ: يَجِبُ عَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ ﷻ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ».

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ» أَيْ: اسْتَصْحِبُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَالْآدَابَ الْحَسَنَةَ الَّتِي يَرْتَجِي الْعَامِلُ لَهَا قَبُولَهَا، وَيُحَقِّقُ ظَنَّهُ بِرَحْمَةِ رَبِّهِ عِنْدَ فِعْلِهَا، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَعِقَابَهُ مَخُوفٌ عَلَىٰ الْعُصَاةِ وَالْمُذْنِبِينَ، وَقَدْ قُلْنَا: إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِغَيْرِ عَمَلٍ غِرَّةٌ، كَمَا قَالَ ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ». وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي حَالَةِ الصِّحَّةِ وَالْقُوَّةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ، وَأَمَّا فِي حَالِ حُضُورِ الْمَوْتِ فَلَيْسَ ذَلِكَ الْوَقْتُ وَقْتًا يَقْدِرُ فِيهِ عَلَىٰ اسْتِئْنَافِ غَيْرِ الْفِكْرِ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ يَغْفِرُهُ، وَأَنَّهُ الْكَرِيمُ الْحَلِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْمُنْعِمُ الرَّحِيمُ. وَيُذَكَّرُ بِآيَاتِ الرُّخَصِ وَأَحَادِيثِهَا، لَعَلَّ ذَلِكَ يَقَعُ بِقَلْبِهِ، فَيُحِبَّ اللهَ تَعَالَىٰ، فَيُخْتَمَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، فَيَلْقَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ وَهُوَ مُحِبٌّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَيُحْشَرَ فِي زُمْرَةِ الْمُحِبِّينَ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي زُمْرَةِ الْخَطَّائِينَ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ حُسْنَ ظَنِّ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ مَقْصُورًا عَلَىٰ حَالَةٍ مَخْصُوصَةٍ، أَوْ حَادِثَةٍ بِعَيْنِهَا، أَوْ زَمَنٍ دُونَ آخَرَ، فَكَمَا يَجِبُ أَنْ يُحْسِنَ الْمَرْءُ ظَنَّهُ بِاللهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ، يَرْجُو عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ،

فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حُسْنُ ظَنِّهِ بِاللهِ مُصَاحِبًا لَهُ فِي كُلِّ مَا يَعْرِضُ لَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ شَدَائِدَ، وَمَا يَنْزِلُ بِهِ مِنْ نَوَازِلَ، وَمَا يَغْشَاهُ مِنْ كُرُوبٍ، فَإِذَا ابْتُلِيَ بِدَاءٍ، أَوْ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ أَوْ غَلَبَهُ الدَّيْنُ، أَوْ فَقَدَ حَبِيبًا كَانَ مِلءَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ أَلَّا يَيْأَسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَأَلَّا يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ بَلَاءٍ لَمْ يَكُنْ إِلَّا خَيْرًا لَهُ؛ يَرْفَعُ اللهُ بِهِ الدَّرَجَةَ، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ شَرًّا أَعْظَمَ مِمَّا ابْتَلَاهُ بِهِ، أَوْ يُعَوِّضُهُ خَيْرًا مِمَّا فَقَدَ فِي عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ» أَيْ: يَبْتَلِيهِ بِالْمَصَائِبِ لِيُثِيبَهُ، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ».

إِنَّ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْحَيَاةِ بِمِنْظَارٍ أَسْوَدَ حِينَ تَنْزِلُ بِسَاحَتِهِمُ الْكَوَارِثُ، وَحِينَ تُصِيبُهُمُ الْبَلَايَا، يَسْكُنُ فِي نُفُوسِهِمْ، أَنَّ الْبَلْوَى سَوْفَ يَطُولُ أَمَدُهَا، وَأَنَّهُمْ سَيُشْرِفُونَ بِهَا عَلَى الْهَلَاكِ، وَأَنَّ الشَّدَائِدَ سَتُلَاحِقُهُمْ، وَأَنَّ الْمِحَنَ لَنْ يَنْقَطِعَ نُزُولُهَا بِهِمْ، وَذَلِكَ كُلُّهُ سُوءُ ظَنٍّ بِاللهِ، لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا مِنْ سَجَايَا الْمُخْبِتِينَ، فَكَمْ بَدَّلَ اللهُ خَوْفَ عِبَادِهِ أَمْنًا، وَفَقْرَهُمْ غِنًى، وَبَأْسَاهُمْ نَعْمَاءَ، وَفَوَاجِعَ الْأَيَّامِ رِفْعَةً وَرَحْمَةً وَغُفْرَانًا. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمُ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ»: فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ؛ لِأَنَّ الْآدَمِيَّ لَا يَنْفَكُّ غَالِبًا مِنْ أَلَمٍ، بِسَبَبِ مَرَضٍ، أَوْ هَمٍّ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَاضَ وَالْأَوْجَاعَ وَالْآلَامَ - بَدَنِيَّةً كَانَتْ أَوْ قَلْبِيَّةً - تُكَفِّرُ ذُنُوبَ مَنْ تَقَعُ لَهُ. وَظَاهِرُهُ تَعْمِيمُ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، لَكِنَّ الْجُمْهُورَ خَصُّوا ذَلِكَ بِالصَّغَائِرِ، لِلْحَدِيثِ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ».